www.racebok.blogspot.com

واستهتارنا .. وقد وقع العقاب ، أيمكن أن تكون المأساة مطهرًا نغتسل فيه من الخطايا والعهر القديم ؟ أمي .. لا تبتئسي ، فإن الأحزان القديمة الطويلة سوف يتداعى بناؤها العتيق ، ويخرج من قلب الغبار والدخان والركام عملاق يحمل بين كفيه فجر الخلاص .....» .

وسكتُّ ..

كانت أمي تنظر إليّ بوجهها الشاحب الحزين ، والدموع تترقرق في عينيها ، ولعلها كانت تظن أني قد أصبت بنوع خبيث من الجنون ، وأغرب أنواع الجنون ينبع من هذيان نسميه حكمة ومنطقًا قويًا ، وتفسيرًا جذابًا للأحداث الجسام التي يرتج لها كياننا .. ولم تزد أمي على أن نصحتني بأن أقلل من السهر ، وأبتعد بعض الوقت عن إطالة النظر في الكتب ، وأن أبحث لي عن عمل أدفن فيه مرارتي وأحزاني .. وقبل أن أنصرف عنها قالت : «لست أدري إلى متى تظل بلا زواج ؟!» وربما كانت تعتقد أن ارتباطي بزوجة ، وإنجابي لعدد من الأطفال قد يقدم بديلًا جديدًا لاهتماماتي الروحية والفكرية ، أو ربما كانت قلقة من أجل مستقبل ابنة أختها التي كان هناك شبه اتفاق غير مكتوب على أنني لها وهي لي ، أو لعلها كانت تريد بديلًا لأختي وأبي أولئك الذين استشهدوا في معركة القدس في يوم من أيام حزيران السوداء .. وقلت لها في توتر : «أمي لا طعم للأعراس ، وأعلام العدو تخفق في سماء المدينة المقدسة ...» .

ووليت هاربًا قاصدًا خارج المدينة ، لم أكن أحمل حقيبة ، أو أضع على عيني منظارًا أسود ، أو أتلفت يمنة ويسرة ، كنت أمضي دون اكتراث ، نظراتي الشاردة مصوبة إلى الأمام إلى بعيد .. متخذًا من جانب الطريق الأيمن مسارًا لي ، والمدينة تعج بأصوات السيارات والطائرات ونداءات الباعة ، وفي مكاني المعهود ، حيث الهدوء والعزلة والصمت والآفاق الرحبة ، جلست فى ظل شجرة عتيقة ، كانت تشدني إلى هذه الشجرة ألفة وحنين من نوع غريب ، وجلست مسندًا ظهري ورأسي على جذعها الضخم الراسخ ، وعشرات الأفكار تصطرع في رأسي المتعب .. ملامح الأرض لم تتغير ، السماء كالعهد بها ، والطيور تمرق فى الأفق الكبير ، والشمس تصب دفئها وأشعتها ، لا تكترث لما جرى ويجري ... والعالم موقفه يدعو إلى الحيرة ، يصفق للمعتدين ، وينحي باللائمة على المغلوبين المظلومين ، ويتغنى بالحق والعدل والسلام .. أكاد أختنق ، وأجفاني تثقل وتثقل ، والإرهاق يجعلني عاجزًا عن الحركة .. كل شيء يضطرب فى ذهني ، لكأني مقيد ، ومعلق بين السماء والأرض ، لا أستطيع الهبوط أو الصعود ، هل توقفت قوانين الطبيعة ، أم أني أضرب فى عالم آخر غامض غاية الغموض» .

وسمعت صوتًا ينادي : «أيها المعلق بين الوجود والعدم ... تعال إلي ...» .

ولفحت وجهي المحتقن الملتهب أنفاس عطرة ندية، أحسست أن يدًا سحرية تصب في قلبي وعقلي قطرات من الراحة والسكينة والرضا .. حاولت أن أفتح عيني فتدفق النور .. يا إلهي ماذا جرى ؟! أخذت أتحسس جسدي، وأفتح عيني ثم أغلقهما .. وأقبض يدي ثم أبسطها .. وأتنفس بقوة ... وشعرت بيد حانية تربت على كتفي في حنان ورفق .. انتفضت .. أسرعت بالوقوف وقد داهمني ذعر شديد، ونظرت خلفي فإذا برجل مديد القامة، مشرق الوجه مشرب بالحمرة، تضفي عليه لحيته البيضاء وقارًا زائدًا، وكان أروع ما فيه عينيه الصافيتين الواسعتين اللتين تفيضان صفاءً ويقينًا وأمنًا : «سلام الله عليك ..» .

صحت في ارتباك : «من أنت ؟!» .

قال والابتسامة تعانق كلماته : «فرضٌ عليك أن ترد السلام على من يقرؤك السلام» .

قلت وأنا ألهث : «وعليك السلام، فمن أنت ؟!» .

– «عبد من عبيد الله» .

– «لم تجب ...» .

– «الحقيقة الأولى هي أننا جميعًا عبيد الله»

– «ولكن لكل عبد اسم ورسم ..»

قال وقد أحنى رأسه حياءً وتواضعًا : «اسمي عمر بن الخطاب ..)

صرخت في دهشة : «من ؟»

– «ما الذي يزعجك يا ولدي ؟»

– «حسبتك خليفة رسول الله ..»

– «إنه لكذلك ..»

تصدر الكلمات من بين شفتيه قوية رصينة، تفوح منها رائحة الصدق والجلال، بريئة من الشك والريبة، خالصة من كل بهتان، لكن كيف أصدق !.

– «الموت سجن رهيب، لم نسمع أن أحدًا اخترق أسواره السميكة، أو تسلق هاماتها الشاهقة ..»

ابتسم في هدوء وقال :

– «الموت جسر إلى الخلود، أتعرف شيئًا عن الله .. والبعث وقدرة الخالق .. وعالم الغيب والشهادة»

– «أعرف الكثير ..»

قال : «تعرف ولا تؤمن، المعرفة شيء والإيمان شيء آخر .. ولا قيمة لمعرفة بدون إيمان، ما دمت قد عرفت فيجب أن تؤمن بالمعرفة اليقينية ... وقدرة الله ليس لها حدود ..» .

طأطأت رأسي في حياء، وقلبي يفيض بالحيرة، وفكري نهب للشكوك المتضاربة، أعرف أن الله قادر على كل شيء، وأن في العالم أسرارًا لم ترفع عن وجهها الحجب حتى عصرنا هذا، وأن عالم الغيب غاصٌ بالأعاجيب والألغاز والأحاجي المشكلة أنني لم أرَ في حياتي ميتًا ينفض عن هيكله وكفنه غبار

السنين ، ثم ينهض ، وشدني من حيرته حينما تساءل قائلًا : «ما هذه المدينة ؟»

– «بيت المقدس يا أمير المؤمنين»

– «أرضنا الموعودة .. جئت من وراء السنين لأرى وأقول .. ليس لي رصيد سوى الكلمة .. يا لجمالها!! لقد زرتها في حياتي ، ووضعت جبهتي على ترابها وأنا أسجد لله .. لترابها عبير لم يزل عالقًا بأنفي .. ولها ذكريات .. وحاولت زيارتها مرة أخرى لكني لم أستطع .. كان الوباء متفشيًا فيها .. وقررت يومها الرجوع .. وقال قائدنا الهمام ابو عبيدة بن الجراح محتجًا : أتفر من قدر الله يا عمر ؟! وقلت له : نفر من قدر الله إلى قدر الله .. وكان نبينا صلى الله عليه وسلم قد أوصانا بألا ندخل أرضًا بها وباء ، أو نخرج من أرض أصابها الوباء «وهكذا رجعت ..»

وانهمرت دموعي وأنا أقول : «يا أمير المؤمنين .. إن بالقدس اليوم وباءً خطيرًا .. هتف في إشفاق : «الطاعون ؟»

– «الطاعون يقضي على عدد من الناس .. لكن الوباء الآن قضى على شعب .. وتاريخ .. وقيم كبرى .. في القدس اليوم الإسرائيليون آفة العصر ، وحاملو ألوية القدر والحقد والدمار ..»

هز الخليفة رأسه ، ويبدو أنه أدرك أنني لا أقصد مرضًا من الأمراض المعروفة بشدة عدواها وخطرها ، وقال : «أريد أن أزورها»

– «مستحيل ؟»

– «كيف ؟ هل أبوابها مغلقة ، أم أن هناك حربًا وحصارًا ؟»

نظرت إليه طويلًا ثم قلت : «هل معك هوية ؟»

– «هوية ؟ ماذا تقصد ؟»

– «هوية ، بطاقة شخصية .. جواز مرور .. أي شيء يثبت شخصيتك ..»

– «إنني لا أكاد أفهمك يا ولدي ؟»

– «الإسرائيليون يا أمير المؤمنين لن يَدَعُوكَ تمرّ!!»

– «أهم قطاع طريق أم جيش مهاجم ؟»

ارتميت لدى قدميه أسكب الدموع ، كنت أهذي وأقول : «القدس تحت نير الاحتلال .. أخذوا القدس القديمة هي الأخرى ، القدس العربية في نكبة «حزيران» .. دورياتهم تجوب الشوارع ، وتقف على نواصي الحارات ، وتراقب المارة ، وتفتش السيارات ، لا يفلت منهم أحد ، حتى النسوة والأطفال والعجائز ، تغيرت الدنيا ، وظاهرتهم أمريكا .. العار يفرخ في أرضنا التعسة منذ سنين ..»

قرأت الحيرة في عينيه ، وعلى وجهه المشرق ، وشرح لي أنه يقف الآن وبيني وبينه أربعة عشر قرنًا من الزمان ، واعترف في

RAJOL

تواضع أن كثيرًا من الكلمات التي قلتها لم يستطع أن يفهم معناها تمامًا مثلما حدث في القديم عندما دخلوا بلاد فارس والرومان، ووجدوا كثيرًا من التقاليد واللغات والأسماء والمصطلحات التي تختلف اختلافا كبيرًا عن مثيلاتها في بلاد العرب، وطلب مني أن أشرح له معنى الاحتلال وحزيران وأمريكا والسيارات، وهممت بالحديث، لكن هديرًا صخابًا سد أسماعنا، وبدد السكون، ورأيت الخليفة يرفع عينيه إلى السماء مستغربًا، وتمتم: «السماء تقذف بالشهب والحمم ..»

همست في حزن دون أن يبدو عليّ أية بادرة من بوادر الخوف: «إنها الميراج»

– «ماذا تعني؟»

– «طائرة ..»

– «إنها تنطلق بسرعة مذهلة، وتسير كأنما يوجهها أحد .. إنها لا تمضي ذاتيا .. أم تراها مخلوق غريب ظهر في عصركم؟ ثم ماذا تعني بكلمة طائرة؟

قلت خافض الرأس حزينًا: «آلة صنعها الإنسان من حديد ومعادن شتى، تسير بوقود من البترول، تنطلق في الجو عاصفة .. تقذف بالنار والموت والرعب .. لا قلب لها .. تسرق النصر، تنفث الذل أو الفناء في صفوف الأعداء. وتمنح المجد والسيطرة لأصحابها .. هي الوفاء الأعمى .. تهد الجبال، وتدمر المنازل، وتشعل الحرائق .. صنعها الإنسان ..»

هز رأسه دهشًا: «لله في خلقه شئون»

– «ليست من مخلوقات الله يا أمير المؤمنين ..»

ابتسم عمر في يقين وقال: «الإنسان يشكل الحديد ولا يخلقه، وفرق شاسع بين من يخلق المادة من العدم، ومن يتحايل بأنامله وتفكيره ويعطي المادة شكلًا أي شكل»

نظرت إليه في إكبار وقد شدتني كلماته البسيطة الصادقة وقلت: «هذا حق»

ثم شرحت له ما أقصده بكلمة حزيران والنكبة والسيارة فرد في يقظة: «وأمريكا؟»

– «أقوى وأغنى دولة في عالم اليوم يا أمير المؤمنين»

– «لكني كنت في الزمن القديم أعرف شتى أنحاء المعمورة ولم أسمع بهذا الإسم قط ..»

– «يا خليفة رسول الله، لقد كانت مجهولة في عصركم، كانت تختبىء خلف المحيطات الشاسعة وبحار الظلمات، معزولة متخلفة، بهنودها الحمر، ثم اكتشفت منذ قرون قليلة، فهاجر إليها كثير من البشر وسكنوها وعمروها .. واليوم أمريكا سيدة العالم ..»

قال: «أهي من أمة الإسلام؟»

– «بل عدوه الأول يا أمير المؤمنين»

تقطب جبين عمر، وطافت مسحة حزن على جبينه المشع، وقال: «وكيف تهابون دولة مهما كان شأنها؟! لقد تركناكم

وألوية الحق تخفق فوق العالم المعمور ، وكان إيمانكم أقوى من الدنيا ، وسيوفكم لا يقهرها باطل .. «كنتم خير أمة أخرجت للناس » ألا تقرءون القرآن ؟ »

قلت في أسى عميق : «كل شيء تغير ، أصبح الرجال غير الرجال .. والمبادىء غير المبادىء ، ومال ميزان القوة ، وأصبح المسلمون مستعبدين .. وفقد كل شيء إلا الأمل ..»

ضرب كفًا بكف ، واكفهر وجهه هذه المرة ، وقال : « أنتم لا تعرفون الله .. إن تنصروا الله ينصركم قول لا يتبدل .. لأنها كلمات الحق الأعلى .. لم أكن أتصور ما حدث .. أيهزمكم اليهود ؟ لو قال قائل في زماننا أن اليهود فتحوا مدينة من مدن الإسلام في أيامي لاستلقى الناس على أقفيتهم من الضحك .. إن في الأمر سرًّا لا يبدو للعيان .. عسير علي أن أهضم هذه الأمور ، لكنكم صانعو المأساة .. ولا شيء غير ذلك ..»

ثم التفت إليّ والعرق الغزير يتقاطر على جبهته ولحيته : « هيا إلى بيت المقدس »

– « والهوية ؟ »

– « لا شأن لك بذلك »

– « إني أخاف عليك »

– « وأنا لا أخاف إلا الله ..»

ونظر إلى بعيد ، حيث تقبع المدينة الخالدة بمبانيها ومآذنها وقبابها ، وأعمدة من الدخان الأسود والأبيض تهرع إلى الأفق ،

وانحدر مرفوع الرأس صوب الطريق العام وأنا إلى جواره ، وأخذ يغذ السير دون أن يبدو عليه إجهاد أو تردد ، وعديد من الطائرات يشق الأفق ، وعشرات السيارات الصغيرة والكبيرة تمرق مسرعة ، وهو يتابع تلك الحركة وضجيجها بنظراته المستغربة ، وتمتم : «يبدو أنه ليس وراء عالمكم سوى صناعة الحديد »

– « أصبح الحديد هو الوسيلة لكل شيء »

– « لا بأس كان السيف من الحديد »

ثم استطرد بعد برهة : «لكن المسلم كان أقوى من الحديد بإيمانه »

www.racebok.blogspot.com

الفصل ٢

امتد بنا الطريق، وأنا أشعر بسعادة غريبة، ألست الرجل الموعود الذي كان له شرف الصحبة مع رجل ذكره يتردد على حقب التاريخ كأعظم ما يكون الرجال، وأنا أسير إلى جواره لا أكاد أصدق، سألني صديق ذات يوم عن العصر الذي أتمنى أن أعيش فيه، وكنت أقول له دائمًا أنني أعشق عصر النبوة وما فيه من رجال وصراع، وهذا عبق من عطر النبوة، إننى مشفق من المستقبل، لكني سعيد برغم الهواجس التي تلعب برأسي.

وعلى يسار الطريق قامت شجرة فارهة تتدفق حيوية، وتتدلى أغصانها الخضراء حتى تكاد تلامس الأرض، وإلى جوارها خيمة صغيرة مزركشة تتراقص فيها الألوان المختلفة والستائر الفضية، وتحت الشجرة جلس فتى وفتاة، وكانت يد الفتى تطوق عنق جارته الفاتنة ذات الشعر الذهبى، ورأسهما متلاصقان، ويدها في يده الأخرى، وكانت نظراتهما تقطر رقة ونشوة، لا يكادان يشعران بما حولهما، يهيمان في دنيا حلم رقراق جميل، وأمامهما زجاجة بها سائل قاتم اللون وكأسان، اتسعت عينا عمر دهشة، وهتف: «ما هذا الذي يحدث على قارعة الطريق»

– «طقوس الحب يا أمير المؤمنين ..»

زمجر مهتاجًا: «لا يصح أن يجلس زوج وزوجة هكذا أمام الناس»

تحيرت، ولم أستطع في البداية أن أعلق، لكني قلت: «إنهما صديقان .. هذا إيلي وصديقته .. إنني أعرفهما ..»

هدر: «ماذا تعني؟ بأي حق ترتكب هذه الدعارة»

– «لا شأن لنا بهما يا أمير المؤمنين»

– «اصمت يا رجل .. الساكت عن الحق شيطان أخرس، هذا انحطاط لا مثيل له، يجب أن يساقا إلى حيث ينالان الجزاء العادل ..»

واندفع عمر نحوهما في ثورة، ثم وجد غصن شجرة جافًا ملقى في الطريق، فالتقطه وأمسك به في تحدٍ، وما إن بلغ مجلسهما حتى صاح: «إنكما تمعنان في السفه والقحة»

فرطن الفتى بكلمات لم يفهم عمر معناها، ثم مال إلى فتاته يقبلها عابثًا ساخرًا، وأمسكتُ بذراع الخليفة، وأخذته إلى الوراء خطوات وقلت: «أيها الخليفة .. لا شأن لك بهما، وليس من اللائق أن تفسد عليهما متعتهما، إن لهما الحرية كل الحرية فيما يفعلان، هذا حقهما، وإن لم تنصرف فلسوف يبلغان عنك الشرطة ..»

ضرب عمر كفًا بكف وقال: «في أي مكان نحن؟ أنا لا أكاد أصدق ما يجري، من أحق بالعقاب والمحاكمة، أنا أم هما؟!